التحليل الأنثروبولوجي للتواصل الشفهي في الوسط

أ. بودواية مختار- جرادي العربي
جامعة وهران 2 جامعة مستغانم.

الملخص:

هذا المقال هو رجوع لنمط خاص من التواصل يطبع جل التفاعلات في الاجتماعي وهو محاولة للرجوع إلى أشكال التواصل و كيفية صناعة المعاني و التفاوض حولها، بداية باستراتجيات المرسل و تأثيرها على المرسل إليه، فضاءات التداول، و هي مناسبة للخروج من النمط الهندسي الخطي و إعطاء بعد آخر للاتصال و التواصل يمكن الباحث من فهم أحسن للاجتماعي و الثقافي، إذ أنه يمكن اعتبار المتون الشفهية خطابات على علاقة بالسلطة و العلاقات الاجتماعية و هي حاضرة في كل تفاعل كما أنها تمكننا من الوصول إلى العناصر المصاحبة له (مثل أشكال الفرجة، الجسدية و فنون الأداء...الخ).

Abstract :

This article ains to settle the communcation and its interactions over the community, and it is a trial to reninding the forms of communication and how to give their meanings starting with the sender stategy and its effect on the receiver linguistic spaces, so that we can keep this communication without looking at linear and geaomtrical forms. This helps more to understand the cultural and social forms such as (distraction forms, structural arts ..... etc).

المشافهة و التواصل الشفهي:

هي عادات الناس و تقاليدهم و جل ما يعبرون عنه من آراء و أفكار و مشاعر، يتناقلونها جيلا عن جيل، و يتكون الجزء الأكبر من التراث من: الحكايات الشعبية و الأمثال والأساطير، و يشمل على الفنون القولية كالأغاني، و الحكايات الشعرية و الأمثال السائرة و الألغاز و الأحاجي و المفاهيم الخرافية التي تبرز أساسا في الاحتفالات و الأعياد الدينية. ويرددها الشعب-بمعناه الخاص هو مجموعة من الناس تشترك في عامل تواصل مشترك، واحد على الأقل، ربما يكون جغرافيا،أو عرقي أو ديني، أو مهني (الجماعات المهنية)-.[1]يشترك في قصص البطولة الأغاني و المعتقدات الخرافية. و غيرها من الألوان التي لم تنل حظها الوافي من الدراسة و الاهتمام.

عرف الباحثون الشفهية بأنها ظاهرة لغوية ...فمتى اخذ الإنسان في الكلام و الحديث فانه يخرج من وضعية السكوت التي هي شبيهة بالسكون و ينتقل إلى وضعية جديدة هي الأخذ في القول حين إذا ينطلق لسانه و منذ تلك اللحظة ينكشف سلوكه اللغوي للمخاطب أو القارئ عن طريق ما ينم عنه من مفردات و تعابير.

حسب لاكوست دي جاردان هي كل التعابير غير المكتوبة التي ينتجها الفرد من أي جماعة كانت و لها شكل معين و قد أنتجت لكي تتكرر و تنتقل داخل نفس الجماعة التي أنتجتها و تكون بالتالي جزء من ثقافتها، ما من اثر التقليد الشفهي إلا وجدنا فيه رواسب نفسية موغلة في القدم، تعود إلى عهد قديم و هو اصدق في الدلالة على النفسية الشعبية من الوثائق و روايات أصحاب التاريخ. [2]

يمثل التراث المقول لواء تنضوي تحته مجموعة بشرية معينة، ويعتبر بمثابة بطاقة تعريف جماعية تحدد معالم العلاقات داخل تلك المجموعة البشرية... يثبت به انتمائه للعشيرة، الشيء الذي يسمح له تزكية أفرادها والتمتع بالعضوية الكاملة[3]

هي بمثابة ذاكرة جماعية حية تحمل في طياتها ما يكون حكمة وموعظة تحدد للإنسان سلوكه الاجتماعي وتمكنه من اكتساب دراية[4]

هي نصوص يسهر الأفراد على ترديدها فالملاحظ في الوسط المحلي وجود قوة اعتبارية للكلمة -الكلمة الشفهية[5]- مثلا: "الحديث قياس فيه الفضة و فيه النحاس؛ نصح المستمع دوما بالعبارة التالية كول الحديث، الكلام الزين يغدى مع الدية، اللسان الحلو يرضع من اللبية، كاين لي جوابه في فمه و كاين لجوابه في كمه و كاين لي جوابه عند أمه" و التركيز على ضرورة ضبط الكلمات "لا تسرج قبل ما تلجم و اعقد عقدة صحيحة لا تتكلم قبل ما تخمم لا تصرالك فضيحة"

التقليد الشفهي يكاد معناه يتعدى الجانب اللغوي ليدل مجازا على المعتقدات و العادات الخاصة بحضارة ما. و هي اليوم محملة بشحنة وجدانية و مضامين إيديولوجية، و هي تشير إلى ما هو مشترك بين الجماعات هو بالنسبة للوعي حضور الأب في الابن و الخلف في السلف و الماضي في الحاضر. أي النظر إلى التراث لا كبقايا ثقافة الماضي بل كعقيدة و توجه و مفهوم أساسي بل هو المعرفي و الإيديولوجي و الوجداني.[6]"

ترتبط اللغة الشفوية بالطقوس و الممارسات؛ فعادات الكلام/المشافهة لها وظيفة اجتماعية محددة إذ يرى مالينوفسكي أن العادة أسلوب مقنن من أساليب السلوك يتم فرضه بالتدريج على المجتمع، يتخذ صفة الإلزامية و يتصل مع نواحي أسطورية، طقسية أي "عادات و تقاليد مجتمع معين ... تقوم بتكريس ديمومة الحدث الاجتماعي أو الأسطوري –أحيانا من خلال اللغة- إذن هي إعادة خلق و إحياء الماضي[7]".

من السهل التعليق على المتون بأنها لا تمت بصلة للحقيقة؛ لكن المهم في هذا الطرح هو البحث عن علاقتها بالواقع الاجتماعي و الثقافي بحكم وجود نوع من الاستخدام يتميز بالثبات و التكرار و الديمومة و هو ما يحيل إلى ضرورة دراستها في كليتها دون الفصل بينها بالرجوع للفئة المتداولة للشفويات مع البحث عن المعنى و الدلالة داخل النص و خارجه؛ إعطاء أولوية لتأويلات مجتمع البحث، أي افتراض وجود سوق لغوية -تبادل للكلمات- تبادل للمعاني و الدلالات و وظيفة ملازمة للأداء الشفوي.

تناول المتون الشفهية كموضوع و ربطها بالتواصل في الوسط المحلي لأنها تعتبر ذات بعد واحد، لوجود مواضعة تجعل منها لا تخرج عن معنى و دلالة واحدة (تنوع القوالب اللغوية و وحدة المعنى) و تقبل من طرف الأفراد على أنها مسلمات و بديهيات أصلية ثابتة لا يمكن تجاوزها، كما أن الملاحظ وجود مواضعة و قصد من الإرسال الذي يعتمد على المتون أو بعبارة أخرى خلف كل إرسال يعتمد على المتن الشفهي يوجد اقتضاء منطقي وارتباط بمدلولات أولية أصلية (مما يبعد كل الدلالات الحافة و المواضعات - الاصطلاحات- الأخرى) و يعطي قوة للكلمة المنطوقة.

في جل النشاطات الاتصالية اللغوية تعمل المشافهة على تقديم للذات و للاجتماعي أي أننا أمام ظاهرة تواصل تتجاوز التعبيرات المشخصنة عن الذات لتعبر عن الاجتماعي ككل؛ كما أنها تعتمد على نظام متماسك من القواعد بحيث يراعي كل من المنتج والمتداول -بصفته مرسلا- لها ضرورة توافر انسجام بين المفردات و النحو و الشكل والإيقاع، زيادة على العناية المفرطة بوضعيات الكلام و ما يجب أن يقال و كل ما يرتبط بالأداء.

تعتبر المتون الشفهية وسيط يمكن الباحث من المرور إلى عناصر أخرى في عملية التواصل مثل نظام الإشارات المصاحب لها (أو نظام الإشارات التي تحاول ترسيخه لدى الأفراد) بالإضافة إلى الجانب الرمزي المرتبط بها (الأبعاد الرمزية المكثفة). للمتون وجود فعلي تعبر عن الإنساني إذ أن لكل شيء مقابل في اللغة و هي تتميز بالسعة و الإحالة بطريقة رمزية، للذاتي و الاجتماعي؛ ليست لغة مفككة بل هي عبارة عن تركيب بسيط مكثف خرجت للاستخدام التواصلي لوجود حافز تداعيات لتخدم غاية و وظيفة اجتماعية، نحن أمام عملية ترميز تاريخية سابقة - لحظات إنتاج المتن- ثم حدث آني (موقف رابط التداعي) و تعبير لغوي في بنيته مضامين رمزية؛ ينظر إذا إلى التواصل الشفهي على أنه لعبة لغوية أو تحويل لساني للخروج من مستوى عادي إلى مستوى آخر يتم فيه تكثيف الدلالة بغية القياس؛ قياس الحدث الآني بالحدث السابق الذي ورد فيه المتن و الخروج بموقف محدد حول الأفعال و السلوكيات. بهذا فإن الاستعانة بالمتن الشفهي في التواصل تعمل على الحلول محل الأشياء و الموضوعات ترتبط بالواقع الفعلي كما أنها تعمل على إعادة إنتاج الواقع، كما أنها مجرد تراكيب تفقد معناها الأصلي و لا تعني شيئا في حد ذاتها فهي تحتاج إلى مرسل و مرسل إليه و مواضعة اجتماعية لتؤسس

لنوع خاص من التواصـــل لا يمكن فهمه إلا بالرجوع إلى المحلي (ضـــرورة فهمها ضـــمن نشاط التواصل و التبادل بين الفاعلين الاجتماعين).

في كل تبادل لغوي و في كل استخدام للمتون يمكن الرجوع إلى معجم واحد يتميز بالثبات و التنظيم، مما يسـمح بإعطائها القوالب المسـكوكة معنى، يعمل التواصـل على تحديده وتعميمه على جل الأفراد، نحن أما مضـامين دالة تقوم على اسـتبدال و اختزال و تجريد للفعل الاجتماعي يتخذ التواصل طابعا خاص لأنه يستعين بلغة تتميز بالتركيب التكثيف و الدلالة؛ تواصـــل يعتمد على عبارات تمزج بين الأشـــياء الحقيقية و معناها الرمزي و الخيالي وفي النهاية "كل شيء يبدوا مقنعا مثل الحصان المجنح رغم الاستحالة البيولوجية و حتى الميكانكية"[8] كل هذا لجعلها قادرة على حمل معنى ينتج من طرف المرســـل-المنتج/المتداول ليصـــل إلى المتلقي. الملاحظ وجود تراكم للرموز يشـــكل مادة أولية لكل تواصـل شـفهي؛ على الرغم من وجود ذاتية الإرسـال و ذاتية الاسـتقبال و ذاتية التلقي والتأويل إلا أن الأفراد يستعينون بها كرسائل للتعبير عن الاجتماعي. هذه المتون تستخدم ذاتيا لكنها عبارة عن تراكم تاريخي جاهز للاستخدام اليومي كل الاعتبارات السابقة يمكن أن تلخص في الخطاطة التالية.

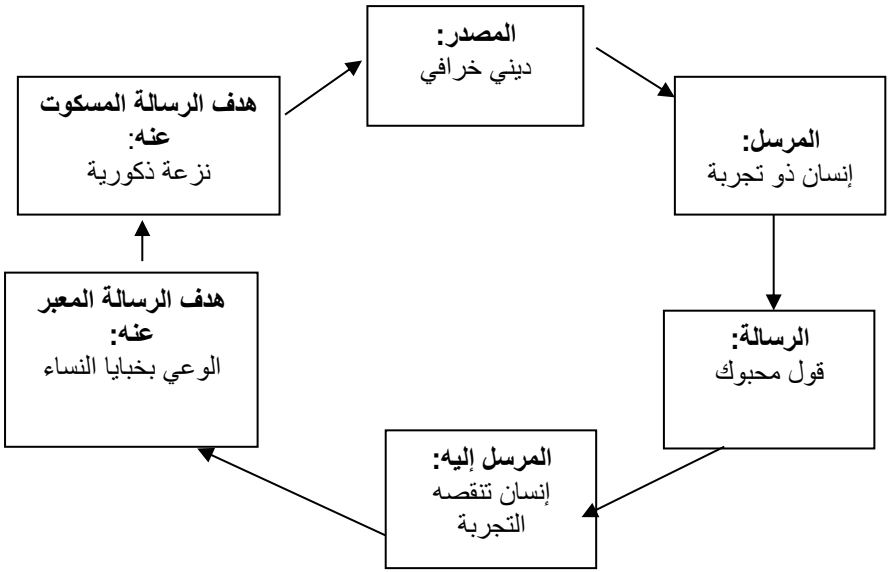

مخطط يوضح عناصر الإرسال الشفوي[9]

لماذا يجب الاهتمام بالتواصل الشفوي:

يجب الاهتمام بها لأنها تمكننا من الولوج إلى الخطاب التحتي الشعبي الضمني ***Infra-discours populaires*** فالزمن هو الزمن الأول قبل التغير إلى ما هو؛ "الآن" أي أن هناك مرحلة وحالة البداية ***Etat initial*** زمن أسطوري زمن الانسجام فيه كل شيء ناطق حي يتحدث يتكلم يقوم بالفعل، للحيوانات ألسنة، كلهم خاضعون للعرف والسنن الاجتماعية القاهرة ثنائية الممنوع/مسموح؛ و أي خرق للقواعد يعاقب الفاعل (العقاب الأسطوري) لتعود الأمور إلى نصابها؛ إن الشفهيات تعمل على تحويل كل شيء إلى إنساني (***Humanisation***) و خلق عالم موازي و مشابه للعالم الاجتماعي؛ ومن هنا يكتسب واقعيته لأنه يقدم نوع من المعرفة الأخلاقية/القيمية يستخدم كأداة بيداغوجية موجه للسلوك.

يمكن للمختص في الاتصال أن يلاحظ بسهولة أن الشفهيات تتميز بالتعدد و التنوع في التسميات و الأداء الجسدي مثل (أهليل؛ إزلوان[10]، الإيزلي[11]، ثقصيط[12]/الإسفران [13]، النشد/النجد، إزلان [14]...قول، ماية، نقادي ملحون...التمثيليات الغنائية الخ) كلها ألوان من الشفهيات تسود شمال إفريقيا؛ كلها لا تنفصل عن الطقوس الممارسات و الجسد الفرجة/التمسرح؛ قد تكون مصحوبة بشبه مسرحيات (أدائية جسدية ***Théâtralité***) وضعيات جسدية يتم تمثيلها محاكاتها أو عكسها؛ في فضاء خاص بالاستعانة؛ بإيقاع؛ صوت أو أصوات و أهازيج معينة كلها تمتزج مع الحركة لتصنع شفهيات/مسرحية/فرجة.(قد يكون الغرض منها الرجوع إلى طلب الخصوبة، أو انتقاد ما هو موجود كالهيمنة الذكورية، أو استرجاع الماضي[15] بطريقة استعراضية).

ترتبط الشفهية بفضاءات محددة بفضاءات فرجوية عامة أو خاصة مركزية أو هامشية و بحسب درجة الرقابة يتحدد اللون الشفهي المناسب (لكل فضاء متن خاص به؛ ومعجم لغوي إن صح التعبير يتراوح بين الملتزم إلى الفاحش) في بعض الفضاءات ترفع الرقابة/الكلفة و يسمح بالإفصاح ضمنيا عن كل شيء كالجنس مثلا بينما يمنع في

مواقف أخرى (إباحية الكلام) لكن يجب أن نبين أن هذه الفضـــاءات محكومة ســـلفا بفئات عمرية محددة و جنس محدد و بضرف خاص.

حســـب الباحث حميد بوحبيب[16] فإن الشـــفهيات تجمع بين مظاهر متعددة لا يمكن فصلها عن بعضها:مظهر إخباري (***informatif***) بالتركيز على الرغبة في الإبلاغ؛ الإفصاح/ مظهر أدائي (***performatif***) بالتركيز على لغة الجســـد/ مظهر إمتاعي (***récréatif***) بالتركيز على اللعب/اللهو (تكفل أحد الفاعلين بأداء دور محدد والبقية يتدخلون من خلال التعليق، التعبير، إبداء رد فعل) تجتمع هذه التمظهرات لتكون الكل؛ و لا يمكن تحليل الشفهيات إلى بردها إلى الفضاء/تمظهرات، لهذا نجد النص مفعم بالتصورات والتمثلات بمجرد إنجازه والتلفظ به يسـهم المنتج/الراوي في التنشـئة و نقل المعرفة في قالب خاص ظاهره اللعب و باطنه قيمي بحت.

الشـــفهيات ترتبط بطقوس قولية[17] /فضـــاء محدد؛ يمكن القول عنها أنها ذات طابع تمثيلي درامي تتميز بخاصـيتين أسـاسـيتين؛ شـفهيات جادة و أخرى هزلية، تهكمية/لعب (الغاية منها التنفيس؛ الاسـترخاء)؛ رسـمية غير رسـمية؛ لكنها كلها تحوي قيم قابلة للنقل كلما تكرر الطقس و هذا ما يجعل من الجسد محورا هاما فيها، لها زمن معلوم و جمهور منظم و الأخرى غير منظمة و لا يشـرف عليها أحد (تقل فيها الرقابة على الجسـد) ترتبط بوجود الجماعـة و تعبر عنها في فضـــاءات بعينها/منابر للشـــفهيات، على الرغم من أن الفضاءات غير مرسومة غير واضحة إلا أن الشفهيات و السلوكيات تتمايز من فضاء لآخر و كذلك وضعيات الاجساد (مثل الشفهيات المتعلقة بالعمل، الشفهيات الغنائية المتعلقة بطقوس الزواج، كل منها له فضاء و وضعية جسد) الفضاء/النادي هو المحدد للأشكال الشفوية.

1) الشفهيات و الفضاء:

لتوضـيح هذه الجزئية نسـتعير بالخطاطة الهندسـية و بفكرة الباحث حميد بوحبيب[18] بحيث يرى أن الفضاء هو منبر؛ بمعنى مكان إنتاج المعرفة و تداولها؛ أهمها:

1- **الفضـــاء المركزي المغلق**؛ و هو منظم تتحكم في عقلانية خاصـــة، و فيه تتجلى القيم الجماعية الواجب احترامها؛ من ميزاته أنه رجالي بحت منتجة لخطابات ذكورية تســـود فيها المعارف التالية (معرفة الحس الســـليم، المعرفة الإدراكية للعـالم الخـارجي، معرفـة الآخرين و النحن)، الكلمـة فيهـا هرميـة، المعرفـة هي معرفـة عمليـة (كل ما يربط الإنســـان بـالطبيعـة، الفصـــول، التقويم، أنواع النبات) بالإضـــافة إلى الحكمة، و كل أشـــكال المعرفة العملية النافعة، تعمل البنية الاجتماعية وفق آلية خاصـــة بحيث يعمد الفاعلون إلى ضـــبط التفاعل داخلها لمكاناتهم ضمن الهرمية (الخفية المعترف بها و المسلم بها ضمنيا) ضبط الخطابات المنتجة من طرف الأفراد و تحديد و تحيد الخطابات (الاصـــطفاء والانتقاء) ما هو جدير بالســـماع و ما هو غير جدير، و في المحصـــلة يمكن أن ندرك أن لكل منتج خطاب/شـفهي فضاء خاص للتداول لا يسـمح بتجاوزه، إذا تحدثنا عن منزل، أسـرة، مأتم، عرس، حلقة الذكر، كلها فضاءات ذات امتداد واحد يمكن اختصارها تحت تسـمية الفضاء المركزي المغلق، لها نفس الوظيفة نقل نفس المعرفة تنشئة الأفراد المنتمين إليها كما أنه خاضع للرقابة و للسلطة الأعلى في البنية الاجتماعية "هو فضء السلطة الرمزية، قد أنتج حكمة الأسلاف و معارفهم"[19]

2- **الفضـــاء الهامشـــي المغلق**؛ بعيد نســـبيا عن الســـلطة، الرقابة، و هو مكان للتنفيس و للاسـترخاء و الابتعاد عن ضـغط العرف الاجتماعي، و هو ليس محدد المعالم منتج لخطاب شـفهي مناوئ للأول كرد فعل (من خلاله يتم خلق توازن في البنيـة الاجتمـاعيـة و يســـمح بنوع من التمرد غير المبـالغ فيـه) مثل النموذج الذي عرضه الباحث حميد بوحبيب (نموذج النسوة عند نبع الماء).

3- الفضاء الهامشي المفتوح: هو رجال مفتوح؛ عبارة عن هامش غير محدد المعالم، لأن الفاعلين فيه هم هامش الذاكرة الجمعية (الرعاة، شذاذ الأفاق، الجوالين، العامة...إلخ) منتجون لخطاب ماجن، فاحش، مع التصريح بكل شيء.

الاستراتجيات المنتهجة في كل ارسال شفهي:ـ الاستراتيجية التضامنية:

يحاول المرسل يحاول أن يؤسس لعلاقة مع المرسل إليه و يعبر عن احترامه له، علاقة تضامنية تعاونية بينهما، (استفتاح الخطاب بالصلات على النبي، أو تضمينها كنية أو اسم علم).

- **الاستراتيجية التوجيهية**: محاولة تبليغ المحتوى (عدم حضور المرسل إليه لحظة إنتاج الخطاب، و عدم حضور المنتج لحظة التلفظ بالخطاب) يستخدم الأمر للتوجيه نحو فعل معين له دلالات عدة كالنصح، الإرشاد أو الردع و الغاية هي الإقناع، و يستخدم المرسل المحاججة للنصح، لهذا يعلب على الشفهيات أسلوب التحذير/الإغراء.
- **الاستراتيجية التلميحية**: يعمل على إخفاء القصد من خلال إستراتيجية غير مباشرة يحتاج إلى الاستدلال عليه بجهد، الغرض منه التنبيه أو التحذير من الوقائع، يستخدم كلمات الظن و الشك، كما أنه ينسج الرسالة شبيهة بالنص المعروف سابقا كالقرآن الكريم.
- **الاستراتيجية الاقناعية**: إزالة الشك المرسل إليه و محاولة تغيير رأيه من خلال أسلوب حجاجي و سوق الدلائل، لتوجيهه نحو المقاصد التي يرجوها السارد أو المنتج للشفهيات. مع محاولة الإيحاء للقارئ بإستراتيجية أخيرة هي **(التبادل)** ليبين له أن الخاتمة هي النهاية التي يصل إليها كل شخص متداول للشفهيات لأنه يضع نفسه مكان المنتج. (و أن المردد للشفهيات لا يمكن أن يكون له رأي مخالف للمنتج لها و أنه يتفق معه في المقدمات و النتائج المتوصل إليها، نجد عبارات كما تدين تدان، إفعل كما فعل بك...).

لا يمكن تناول الشفهيات أنثروبولوجيا دون الرجوع إلى فضاءات التواصل، فالنص من خلال فعل التبادل يضمن نقل للتجارب المعاشة الماضية و الحالية في قالب جمالي لتتشكل بذلك معالم و أطراف العملية التواصلية داخل نسق يغلب عليه طابع الإنتماء و عليه يسجل الفضاء رمزيا من خلال اللغة؛ إن عبارة فضاء تعني وجود إنتاج و إعادة إنتاج إبداعي للشفهيات و تتضمن أيضا تبادلية للقيم، فالمنتج

المرسل و المتلقي ينتميان إلى فضاء حقيقي أو رمزي؛ "الفضاء الثقافي فضاء تبادل لغوي، لهجي، رمزي، أسطوري، شعري...هي فضاءات للجمعنة (***Sociabilité***) لكن مع تمييز بين فضاءات مقدسة و أخرى أقل قداسة..."[20]لكل فضاء فاعلون محددون و لكل منهم رؤيته للعالم و طريقته في التعبير و هو ما يحدد قيم في النهاية، أي أن هناك فضاء مؤطر، شفهيات/سوق لغوية تبادلية و المحصلة النهائية قيم سلوكية، تعتبر الشفهيات معبرة عن رأس مال الرمزي للمنتجين، و لها علاقة مباشرة بالبنيات الموضوعية الاجتماعية المتاحة أمام الأفراد بحيث يمكن رد كل نص شفهي إلى منتج محدد ضمن حقل ثقافي عام، مع وجود نوع من الخصوصية. بالرجوع إلى الشفهيات نجد أنها تركز على الفضاء كأساطير التأسيس التي تتحدث عن البركة و تعمير الأرض من طرف "الولي[21]" الفاعل، و فيها نلاحظ تحول الفضاء إلى مجال اجتماعي حيوي بعد الاستقرار و التملك، ثم تعمد إلى التركيز على صيغة التملك و إقصاء الآخر وخلق للمساحات الاجتماعية.

يمكن الاعتماد على الأنموذج الذي وضعه الباحث حميد بوحبيب من أجل التحليل فقط دون محاولة الحصر الدقيق للاستراتجيات؛ مع الاعتراف أن المرسل و المرسل إليه لا يملكان سلطة مطلقة في بناء المعنى و الغاية من كل استخدام للمتن الشفوي هو التأثير و إحداث استجابة محددة، كما أن الاستراتجيات متداخلة و هي في الغالب متضمنة في كل إرسال غير معلنة، يمكن في التحليل تجاوز البعض منها و الاعتماد على أكثرها أهمية بالنسبة للمرسل كل هذا بالرجوع إلى شكل و محتوى الإرسال.
يمكن اعتبار المتون على تنوعها؛ تباينها و تعددها على أنها تعبيرات شكلية متعددة لمعنى واحد، تختلف لكنها تتساند للتعبير عن حقيقة واحدة، يسعى المرسل إليه لإبلاغها؛ " البحث عن الأشكال الثابتة ضمن المضامين المتحولة"[22] الإستراتجية واحدة يمكن التعبير عنها بأكثر من طريقة في كل إرسال.

نلاحظ أنه في كل إرسال لا يبين المرسل ذاته على أنه منتج المتن لكنه يحاول أن يخرج من الاستخدام المعتاد للغة إلى مستوى آخر يخلق من خلاله تقاطع مع مقولات ثابتة راسخة ذات قيمة بالنسبة للمرسل إليه، حتى أن هذا الاستدعاء لا يقطع الصلة

بالاجتماعي، كل هذا مع الأخذ بعين الاعتبار أنه –أي المرسل- يحاول أن يتحكم و يوجه الإرسال ليخدم غايات محددة لهذا يجب الاهتمام بالاستراتجيات.

سعي المرسل إلى تركيب خطاب يتقاطع مع نصوص سابقة يتداخل معها ليتحول المتن الشفهي من خطاب تم أنتاجه في سياق زمني تاريخي إلى خطاب المنتج و الأنا و الآخر الذي نشترك معه في اللغة الشفوية و التمثلات و التصورات يمكن أن نعتبر كل المقدمات السابقة على أنها محاولة للتعديل و للتغيير أثناء إنجاز المتن الشفهي و التلفظ به؛ أي أثناء عمليات التبادل اللغوي (بين الشركاء) و يعمل الإغراق في الوصف و الحكي-السرد إلى محاولة إقناع المرسل إليه و إثارته، كل هذا لا يمكن فصله عن محاولة إبلاغ معنى محدد، و لا يمكن تجاوز قصدية المرسل الذي يحاول تحقيق استجابة تتماهي مع القيم و التوجهات الاجتماعية في الوسط المحلي، "الغاية هي تشييد المعنى عن طريق التفاعل و من خلال العلاقة التفاعلية بين المتكلم و المستقبل (المرسل و المرسل إليه)"[23] و محاولة الوصول إلى تأسيس وظيفة عملية للمشافهة و الوصول إلى نفس الدلالة، و يتخذ من القوالب اللغوية آداة للتبليغ خاصة أن المرسل في كثير من الوضعيات يوحي للآخر بأن خطاب المتن هو خطاب يتميز بأنه متعالي عقلاني كما أنه الأكثر ملائمة للواقع المعاش، والشكل التالي يبين أهم الاستراتجيات و غاياتها حسب المرسل:

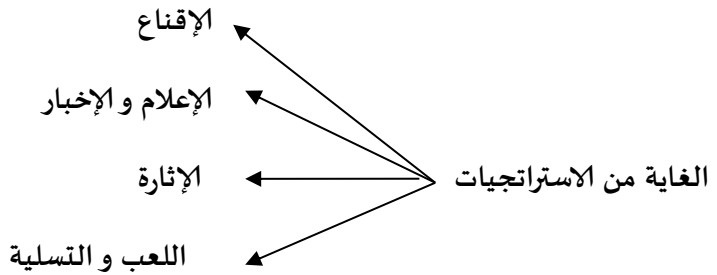

الإرسال الشفوي عبارة عن إحالة لمرجع واقعي لكن بالاستعانة بحمولات معيارية و ينقل الحكي إلى مستويات يتم فيها إشراك فاعلين غير موجودين في الواقع لكن يمكن أن نلاحظ في جل المتون المتداولة في الوسط المحلي وجود ارتباط بالتجربة الجمعية، يحاول المرسل تضمين الإرسال مجموعة من القرائن (Les Indices) و ما تم التواضع عليه، لا

يمكن فهمها إلى بالرجوع إلى المتن و سـياق التداول و الموقف الرئيس الذي من أجله تم استدعاء المتن الذي يتميز بصيغة العمومية بين الأفراد في الوسط المحلي (يسهل التعرف على مقاصدها).

لا يمكن اعتبار النشاط التواصلي الشفوي منتج لدلالات متعددة، فالمرسل حاضر و هو يحاول القضاء على الغموض الإرسال-الرسالة، و يعمل على تعيين و تحديد المعنى.

"اللغة -الشـفوية- سـنن و المجتمع تشـريعه، و من كون التواصـل لا يقصـد به إرسـال الرسـائل اللغوية بل الرسـائل الاجتماعية -في قالب نفسـي لسـاني- و من كون التلفظ لا يرمي إلى التعبير بل إلى السيطرة و الإخضاع لسلطة"[24] و منه يمكن القول بأن التواصل من خلال استدعاء المتن الشفهي هو تبادل محدد سلفا مضمونا و شكلا، أي أن الرسالة هي نفسها مع التغير في أطراف العملية الاتصالية فقط.

النشاط اللغوي للمرسل و غائية المتون:

المتون غير قابلة للفهم فالمرسـل يسـعى إلى تضـمينها إشـارات أسـماء للأماكن و الأعلام وصـف للفضـاء الأول أي ربطها بسـياقات و بالبنية المجتمعية لتنتج معنى، و يحاول أن يعبر عن التغيرات الكبرى و المآلات و النهايات المحتومة؛ بناء تسـلسـل زمني للمسـتقبل بصـيغ اسـتشـرافية (ربط الماضـي بالحاضـر و جعله ممتدا) التعبير عن الحدث كقيمة إستراتجية تخدم غايات اجتماعية خارج النص، تتخذ كتفسيرات للواقع، تتحدث المتون أيضا عن الزمن التغير و موت القيم.

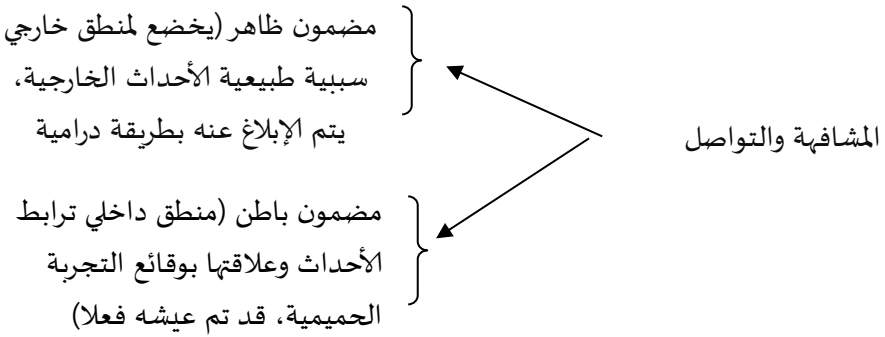

مثلا: رؤية **الزمن** على أنه يجب أن يكون متصل، يخضع لمنطق التراكم دوري يمكن فيه الرجوع إلى نفس الحدث الأول المؤسس، عبارة عن دورة و صيرورة و هو ما يؤسس للوعي بالتماثل و لا وجود للاختلاف و منه يجب تحويل كل شيء من خلال اللغة إلى وقائع منطقية قابلة للقياس على الحدث المؤسس الأول، إن التذكر و الاسترجاع و استعادة الماضي (الأخبار، الأحداث و الوقائع) الآن محاولة لبلورة رؤية و محاولة للتأثير (بطريقة انفعالية في تفسير الراهن الحدث المستقبلي)؛ من خلال هذا الاستدعاء يتم نفي كل معنى مخالف للمعاني التي تم إنتاجها في لحظات التأسيس، فالتجربة الاجتماعية هي تجربة الجد الذي تنحدر منه السلالة (التجربة التاريخية هي تجربة اجتماعية ممتدة الآن) و كل مناسبة لاستدعاء المتون (حتى لو صاحبتها انفعالية) هي فرصة للرجوع للقيم و بناء التوجهات السلوكية.

الملاحظ في الميدان أيضا وجود رفض للوضع الراهن فالمرسل يتميز بنزعة للتحقيب من المرور من مرحلة إلى مرحلة، ينظر للأحداث على أنها ثابتة و يرفض المنتج/المرسل والمتداول للمتن كل تغير، الارتقائية، القطيعة و التطور، فالتجربة الماضية للمنتج الأول هي الأكثر نضجا و اكتمالا. صرح الكثير من الأفراد بأن التجربة الفردية للمؤسس الأول مكتملة، يجب التماهي معها، هذا يضمن دوام و استمرارية المقولات الموروثة عنه. لهذا فمبدأ الزمن لا يهم فكل شيء يعبر عن الماضي متعالي (خارج الزمن). يعتقد الأفراد أيضا بوجود تأثير متبادل بين الماضي و الحاضر، و إسهامات الفاعل التاريخي لا يمكن نفيها اليوم (الملاحظ أيضا أنه في كل استخدام اجتماعي للغة وجود تساند للمتون لملئ الفجوات و الثغرات و لخلق انتظام يجعل منها صادقة لأبعد الحدود لهذا يتم استدعاء عناصر أسطورية في الحكي) كل هذا يبين وجود قصدية للمرسل المنتج و المردد للمتن ووجود غائية/وظيفة تتبع كل استخدام لغوي.

كل من المنتج؛ المرسل و المتداول للمتن يحاولون بطريقة معينة إنتاج خطاب من خلاله يتم الاجتهاد لاستعادة النص الأصلي (ولو في شكل محرف) و المحافظة عليه و نقله للآخر. نحن أمام خطابات متعددة في الظاهر إلا أنها تتساند ليتجلى المتن الوفي للحظات التأسيس الأولى و للمنتج الأول و لزمن التأسيس (لا يمكن نفي أن المتون تحاول أن تمجد

و تعيد الاعتبار للفاعل و لنشـاطه و للأحداث و الوقائع كحقائق تاريخية يتم اسـتدعائها لدعم الحاضـر) مثل المتون التي تتحدث عن البناء الاجتماعي بعبارات القبيلة الفرقة كلها تسعى لصناعة منظومة إسناد تمكن من بلورة "الأنا"و رؤية "الآخر"

وظائف المتون الشفهية:

تلعب المشـافهة أدوار متعددة:[25] دور وظيفي نظرا لمعيارية الأشـكال الشـفهية، دور محلي معالجة المشاكل المجتمعية، دور كوني في تناول القضايا الكبرى المهمة، دور رمزي. المتون عبارة عن بنى منطقية الغاية منها اسـتيعاب القضـايا و الإشـكاليات المجتمعية، المرسـل يلعب دور المفوض الذي ينوب عن المنتج الأول، يمنح قوة للأشـياء و الموضـوعات في الاجتماعي، مثلا قوة منح/المنع لها دلالة تجعل من مسـار الحكي/الرسـالة مولد للدلالات التي تتقاطع مع السلوكيات.

وظيفة حفظ النظام القيمي:

يسـعى المرسـل للمتن إلى"محو الزمن الحسـي و الانتقال إلى الزمن الأسـطوري"[26] الشـعور بامتلاك سـلطة القول –الحكي- و الفعل، بالإضـافة إلى تملك القدرة على التعبير عن العالم الاجتماعي و إعادة بنائه من خلال اللغة، تعتبر المتون مصـدر معرفة بالنسـبة للمشاركين في العملية التواصلية، لا يمكن فصل العملية عن الزمن الميثولوجي الممتد إلى هنا-الآن عبر الشـفويات، نحن أمام جوانب عدة؛ إذ يسـهل تجاوز الوظيفة الترويحية إلى وظائف أخرى أساسية (سحرية، معرفية...الخ).

الوظيفة السحرية:

على الرغم من أن جل المتون تتجلى كلعبة إلا أنها ترتبط بالأسـطوري و السـحري (تم تغييب الوظيفة السـحرية) لا يعنى بالضـرورة أنها غير موجودة، الاعتقاد بالقدرة الكامنة في الكلمة "قوة الكلمة"، فمن خلال المثال المقدم من طرف الباحثة فاطمة ديلمي بوجود علاقة وطيدة بين الشـعر و الطقس بأن الشـعر انحدر في نشـأته الأولى من الطقس و كان

وسيلة لإحداث أمر أو منع وقوعه "الكلمة في الخطاب الشعري و كذلك في الخطاب السحري تغير الشيء فيما هي تقع عليه و تحضره فيما هي تناديه"[27]

إن اعتناء المنتجين للمتون بالصفات و المحاسن و الخصال بل الوصف الدقيق يعتبر كنوع من الاستحضار للذات المثالية من خلال اللغة "استحضار سحري"، تأكيد المتون على وجوب التماثل في السلوكيات بين النموذج المرغوب التاريخي و تباينها و اختلافها وابتعادها عن النموذج.

كما أن المرسل يبين لنا قوة اللفظ غير المتناهية لأنه تم انجازه من طرف المنتج المتعالي القادر على منح البركة أو انتزاعها (مثلا ما وصلنا عن قصص الكرامة و الأولياء والصالحين) فالمردد للمتن بطريقة غير مباشرة يحول اللفظ إلى فعال من خلال التكرار، لهذا يعتبر ذو وظيفة سحرية، في الغالب يتم مقارنة ما هو موجود في المتن و ما هو موجود في الواقع و يتم بسهولة إثبات أن الراهن الآني تغير كنتيجة لنبوءة تاريخية؛ قدمها شخص عارف، (المعرفة ممكنة من خلال اللفظ)

يجتهد المرسل ليطابق بين اللفظ للواقع، في كل تواصل، المتن امتداد للذات القائلة والمتداولة له، مثلا في القول التالي عن ولد الوهراني: "شوفوا ماذا جاي و ديروا هذا الراي"، كما أنه من الصعوبة بما كان فصله عن الخطابات الأخرى أو اعتباره على أنه مجرد خطاب فردي لأنه يرتبط بالتاريخي و الاجتماعي و الديني و الثقافي، نحن أمام خطاب مواجه، رافض للتغيرات و للوضعيات الاجتماعية للآني ككل، (مثل رفض السلطة) لا يمكن اعتباره كخطاب هامشي (خطاب بعيد عن المركز) يعتبر كميكانيزم للتعبير و الإفصاح، (الهروب من التحكم و الرقابة) و فيه يتم التقليل من الكلفة أو رفعها، و يتم أيضا تجاوز الممنوعات القولية. السماح بقدر رمزي منفلت عن الرقابة.
يمكن اعتبار المشافهة كوسيلة لحفظ التاريخ المحلي حتى بالنسبة للفعلين الذين يعرفون الكتابة؛ هذا لأنها تعتبر كسند معرفي ثانوي معين للذاكرة فقط، لا يمكن أن تزيح المشافهة من الاستخدام في اليومي والمعاش الاجتماعي الواقعي.

مثلا دلالة التتابع في كل حكاية أو أسطورة أو خرافة تبين وجود جملة من الخيارات؛ تدل عليها المشاهد الواصفة تعتبر كقرائن دالة قابلة للتأويل على أنها قيم؛ "النشاط اللغوي الثابت والذي يستند إلى استخدام متتالي للمتن الشفهي الغاية منه التعريف بالذات والمحافظة على البقاء، بحيث نلاحظ أنه خطاب موجه للخارج، يعبر على الخبرة السابقة ويجعلها محل تبجيل-تقديس ويحولها إلى نموذج كما أنه عبارة عن خبرة ذهنية يحاول الأفراد أن يشيعوها من خلال اللغة اليومية.

إن استدعاء المتون قد يخرق الزمن والمكان لكن الأفراد يقبلونه على أنه واقعي، حقيقي، ويبحث المرسل عن المماثلة بين الرسالة في بعدها "الماضي" وإسقاطاتها على "هنا الآن" نقل الرسالة هو نقل لخبرة ذات قيمة بطريقة منظمة وعقلانية. محاولة المطابقة بين المروي-المحكي والعالم الاجتماعي جزئيا أو كليا حسن نوع المتن الذي تم استدعائه.

وظيفة التعبير عن الوضعيات الاجتماعية:

الوظيفة التربوية: "علاقة اعتبارية بين الدال و المدلول ففي هذا النمط تتجلى بعض التجارب الشخصية الحميمية من خلال رمزية ترتبط بين دال معين و دلالة خاصة نابعة من التجربة فردية عاشها مستعمل الرمز (الدال) و هو رمز ذو وظيفة اتفاقية" [28] كما أن هناك استخدام للرمز بحكم وجود نوع من المماثلة بين التجربة الذهنية و الجسدية أي أنها ناتجة عن تجارب انفعالية معاشة، لكن لا يمكن فهمها إلى بالرجوع إلى المحلي الذي يعطيها معنى خاص و دلالة محددة "دلالة الرمز المخصوصة لا يمكن أن تحدد إلا بناء على السياق العام الذي يندرج فيه هذا الرمز"[29]

و في الأخير يمكن القول أن التحليل الأنثروبولوجي للمتن الشفهي؛ انطلاقا من وضعيات التواصل، السياق و الفضاء يمكننا من فهم الاجتماعي و الرجوع إلى لحظات التأسيس ويقدم لنا فهم أحسن للاجتماعي و للمحلي، و هو ما يمكننا من الرجوع للتجربة الجمعية الحقيقية المختزنة في اللغة الشفوية التي يتداولها الأفراد في اليومي بصيغة مكثفة، وهو ما يخرج البحث في الاتصال التواصل و التبادل من النمط الخطي إلى النمط الذي يراعي الإنساني الثقافي و الاجتماعي.

المراجع:

1. الموسوعة العربية العالميةً، ص180.181
2. بداك شـابحة الممارسـات السـحرية للمجتمع القبائلي منشـورات دار السـعادة الجزائر.ص08-09-10.
3. الحاج بن مومن: استراتجية الخطاب لدى العرب الرحل، سلسلة ندوات و مناظرات رقم 163، التراث الشفهي و سؤال الهجرة، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية الرباط، الطبعة الأولى، 2006. ص 34.
4. الحاج بن مومن نفس المرجع السابق ص 34.
5. التركيز على وصـف ما هو موجود (العيش في الركاب أو الكتاب، تخليد للرجال و الأعلام الأولياء و فئة المحاربين أي الأجواد).
6. عابد الجابري: نحن و التراث، نفس المرجع السابق ص24.
7. بداك شابحة، مرجع سابق.ص58.
8. عبد الهادي عبد الرحمن (بتصـرف): لعبة الترميز؛ دراسـات في الرموز اللغة و الأسطورة، مؤسسة الإنتشار العربي، لبنان، 2008، ص41.
9. على أفرفار: صـورة المرأة بين المنظور الديني و الشـعبي و العلماني، دار الطليعة بيروت، 1996، ص80
10. هي الأبيات المكونة للأهليل المعروف بمنطقة قورارةGourara بالجنوب الجزائري.
11. مأخوذ من الجذر (ز-ل) بمعنى الغناء و الحكمة، و هو قصـيدة أحادية المقطع يتكون من سـتة أبيات فقط، غالبا منتج أنثوي يعبر عن وضـعية المرأة (يغلب عليه طابع النجوى و التأمل).

12.هي من قصة و أنثت بالبربرية بإضافة "ثاء"، على شكل قصيدة تحمل طابعا قصصيا و تحكي سيرة معينة و تروي مآثرو تقدم الحكمة و الوعظ في شكل خطاب ديني.

13.و هو من الفعل يسًـفرا- قال الشـعر من بين خصـائصـه أنه خطاب كان إباحيا ماجنا رافض هامشي لكنه توحد مع اللون الأول.

14.عبارة عن تقاليد شـفهية من الأطلس الأعلى و الأوسـط المغربي تؤدي جماعيا في المناسـبات الطقسـية الجمعية، قد تكون التجمعات نسـوية أو ذكورية أو مختلطة، هذه التقاليد الشـفهية البربرية (الاحتفالية) لازالت موجودة إلى اليوم و ترافقها عدة طقوس.

15.و هو ما تم ملاحظته في ميدان الدراسـة، في طقوس التجميع و بالتحديد الوعدة نلاحظ أن هناك شـفهيات خاصـة بكل عرش و لكل فرقة "علفة" خاصـة بها و "ماية" "النقادي" تعرف بها، هذا الطقس الاسـترجاعي ليس لتأثيث الفضـاء بل هو اسـترجاع لطبقة لأجواد و للفرسـان و للتاريخ الجماعة المنتجة للشـفهيات، هو عبارة عن استعراض للقوة قوة الفرسان و قوة الكلمة/شفهية.

16.يعالج الباحث الديوان النسـوي المعروف تحت تسـمية "أورارن الخالات" و هو يتم عند نبع الماء "ثلا" في الخلاء/عدم وجود رقابة ذكورية (فضاء نسوي مغلق لا يحضره الذكور) بحيث تقوم إحدى النسـوة الحاضـرات بتقليد الرجل و أخرى بتقليد المرأة؛ أي المحاكات بالرقص؛ عبارات، أصـوات، زغاريد في مجمله طقس تهكمي سـاخر من السـطوة الـذكوريـة؛ و في نظر البـاحـث هو عبـارة عن آليـة للتعريف بـالآخر، نقـل المعرفة، القيم، المهارات الجنسـية، عبر كسـرها و تقريب الصـورة ممن هن مقبلات على الزواج؛ (إدراك بعض الجوانب الإيروسية و تعلمها من خلال اللهو و الفرجة على الأخريات، تخفيف –وطأة- صدمة أول لقاء بين الزوجين).

17.في طقوس التجميع كالأعراس و الأفراح و الوعدات نلاحظ أنواع محددة من الشفهيات، في طقوس التفريق كالمآتم نلاحظ أنواع أخرى، في طقوس الاستعطاف نلاحظ صيغ خاصة، إذن هناك ارتباط بين الشفهيات و الطقوس و الفضاء الذي تؤدى فيه (لكل طقس متن خاص و فضاء للتداول).

18.حميد بوحبيب، مدخل إلى الأدب الشعبي، مقاربة أنثروبولوجية، دار الحكمة، الجزائر، 2009، ص194-198.

19.حميد بوحبيب، مرجع سابق، ص207.

20.حميد حبيب: مدخل إلى الأدب الشعبي؛ مقاربة أنثروبولوجية، دار الحكمة، 2009، ص08.

21.هناك العديد من النصوص التي تركز على شغل الفضاء، و عن بركة الأولياء و تعميرهم للأرض و حمايتهم للأفراد. مثل ما ه متداول في منطقة معينة (قال سيدي خالد لسكان قرية كافي ما يصدع و لفعتي ما تلدغ) و هو يعتقدون في بركة هذا الولي الذي سمح لهم بالإقامة و وفر لهم الحماية إلى اليوم، إكراما له يسمون أحد أبناءهم إن لم يكن البكر باسم خالد، كما يخلدون ذكراه شفهيا و ماديا من خلال نسب مجموعة من المعالم باسمه (الخلوة، آثار فرسه، مكان تعبده و أخير قبره) كما أن وليا آخر قد طار بعد مطاردته و آخر قد دخل في قلب شجرة التين، هناك تقديس للفضاء و للكرامة و للزمن الأول زمن الولي...

22.أحمد يوسف (بتصرف): سيميائيات التواصل و فعالية الحوار؛ المفاهيم و الآليات، منشورات مختبر السيميائيات و تحليل الخطاب، جامعة وهران، 2004، ص93.

23.أحمد يوسف (بتصرف): سيميائيات التواصل و فعالية الحوار؛ المفاهيم و الآليات، منشورات مختبر السيميائيات و تحليل الخطاب، جامعة وهران، 2004، ص103.

24.عبد الرحيم تمحري: تقنيات التواصل و التعبير، منشورات مجلة التربية العدد 08، الدار البيضاء المغرب، 2007، ص74-75.

25.المصطفى الشاذلي، الحكاية الشفاهية بالمغرب و في بلدان المتوسط، أوليات منهجية في تناول و معالجة المتون الشفهية و الإثنوغرافية، منشورات زاوية، الرباط المغرب، 2009، 9-10.

26.فاطمة ديلمي: لعبة البوقالة الطقس و الشعر و المرأة، أعمال المركز الوطني للبحث في عصور ما قبل التاريخ و علوم الانسان و التاريخ عدد 07، لسنة 2009. ص 25-26

27. فاطمة ديلمي لعبة البوقالة، ص46.

28. محمد مجاهد: الحكاية الشعبية الماهية، الرمزية، الوظيفة، المأثورات، كنوز للإنتاج النشر و التوزيع،الجزائر، 2011، ص61.

29. محمد مجاهد: مرجع سابق، ص63.